قبسات من السنة الصحيحة

حول "العمليات الاستشهادية" (3)

ابراهيم العلي

نماذج من الفتوحات الإسلامية

عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أنا زعيم ـ والزعيم: الحميل ـ لمن آمن بي، وأسلم، وهاجر ببيت في ربض الجنة، وبيت في وسط الجنة، وأنا زعيم لمن آمن بي، وأسلم، وجاهد في سبيل الله ببيت في ربض الجنة، وبيت في وسط الجنة، وبيت في أعلى غرف الجنة، فمن فعل ذلك لم يدع للخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً، يموت حيث شاء أن يموت

أخرجه النسائي: (6/21)، وابن حبان برقم: (4619)، والحاكم (2/61) وإسناده صحيح.

أن رسول الله صلى الل عليه وسلم يخبرنا عن أعظم الأعمال، وأكثرها أجراً عند الله سبحانه وتعالى، وهو الجهاد في سبيل الله، الذي يعطي الله عزوجل عليه بيتاً في ربض الجنة، وبيتاً في وسطها وبيتاً في أعلى غرفاتها، ويعتبره أعلى أعمال الخير منزلة حيث ينال المجاهد الخير أينما توجه، وهو الملجأ الذي يُلجأ إليه من الشر، ويتكفل النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصل المجاهد المؤمن المسلم على كل ما ذكره من أبواب الخير.

ابن الأكوع يطارد جيشاً

واستكمالاً للعمليات الاستشهادية التي ذكرناها في المقال السابق، نذكر نموذجاً فريداً من العمليات الاستشهادية، هذا النموذج لرجل من أصحاب رسول الله صلى الل عليه وسلم يطارد جيشاً من أعداء المسلمين هاجم المدينة، وسطا على إبل الصدقة، فقام سلمة بن الأكوع رضي الله عنه بمطاردته لوحده، بعد أن صاح صيحة الحرب التي بلغت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضي الله عنهم

الذين لحقوا به، بعد أن فرغ من إنقاذ إبل الصدقة منهم، وبعد أن سلبهم رماحهم وغيرها من الأمتعة، ولطول الحديث ساقتصر على مواطن الدلالة على جواز العمليات الاستشهادية، واقتحام تجمعات الأعداء، ولو علم المجاهد الذي يفعل ذلك أنه ينال الشهادة ويقتل في سبيل الله.

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قدمنا المدينة زمن الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت أنا ورباح ـ غلام النبي صلى الله عليه وسلم ـ بظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرجت بفرس لطلحة بن عبيد الله أريد أن أنديه مع الإبل، فلما كان بغلس أغار عبد الرحمن بن عيينة على إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقتل راعيها، وخرج يطردها هو والناس معه في خيل، فقلت: يا رباح، اقعد على هذا الفرس فالحقه بطلحة، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد أغير على سرحه، قال: وقمت على تل، فجعلت وجهي من قبل المدينة، ثم ناديت ثلاث مرات يا صباحاه.

قال: ثم أتبعت القوم معي سيفي ونبلي، فجعلت أرميهم وأعقر بهم..." "... فما زال ذلك شأني وشأنهم أتبعهم وارتجز، حتى ما خلق الله شيئاً في ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته وراء ظهري، فاستنقذته من أيديهم، ثم لم أزل أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً، وأكثر من ثلاثين بردة، يستخفون منها، ولا يلقون من ذلك شيئاً إلا جعلت عليه حجارة وجمعته على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم..." "... قال: فما برحت مقعدي ذلك حتى نظرت إلى فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخللون الشجر، وإذا أولهم الأخرم الأسدي وعلى إثره أبو قتاده فارس رسول الله، وأنزل من الجبل فأعرض للأخرم فأخذ عنان فرسه، فقلت: يا أخرم أنذر القوم ـ يعني أحذرهم ـ فإني لا آمن أن يقتطعوك فاتئد حتى يلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال: يا سلمة! إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق والنار حق، فلا تحُل بيني وبين الشهادة.

قال: فخليت عنان فرسه فيلحق بعبد الرحمن بن عيينة، ويعطف عليه عبد الرحمن فاختلفا طعنتين فعقر الأخرم بعبد الرحمن، وطعنه عبد الرحمن فقتله..." أخرجه مسلم برقم: (1807)، وأحمد في المسند: (4/52/53) بطوله.

وعقب أبن النحاس رحمه الله على هذا الحديث بقوله: "وفي هذا الحديث الصحيح الثابت أدل دليل على جواز حمل الواحد على الجمع الكثير من العدو وحده، وإن غلب على ظنه أنه يقتل، وإذا كان مخلصاً في طلب الشهادة، كما فعل الأخرم الأسدي رضي الله عنه، ولم يعب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليه، ولم ينه الصحابة عن مثل فعله، بل في الحديث دليل على استحباب هذا الفعل وفضله، فإن النبي صلى الله عليه وسلم مدح أبا قتادة وسلمة على فعلهما، مع أن كلاً منهما قد حمل على العدو وحده، ولم يتأن إلى أن يحلق به المسلمون ـ والله أعلم"

الجنة تحت ظلال السيوف

إن تاريخنا الإسلامي مليء بكثير من الصفحات المشرقة لأناس ضحوا في سبيل الله بأنفسهم، من خلال مشاهد جهادية رائعة، قاموا بها في ميادين الجهاد، وساحات الوغى، رسموا من خلالها منهجاً لمن سيأتي بعدهم من أبناء المسلمين، وعمقوا هذا المنهج بدمائهم وأرواحهم، وأثبتوا أن المبادئ لا يمكن أن تنمو وتكبر إلا إذا سقيت بالدماء الزكية الطاهرة، ولذلك فقد خلد التاريخ مواقفهم، ونسي مواقف الجبناء والمتخاذلين لهوانهم عليه.

وسأذكر مجموعة من هذه المواقف الرائعة، والصفحات المشرقة لقوم بذلوا أنفسهم وقاموا بعمليات استشهادية في صفوف أعداء المسلمين:

عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي، وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف، فقام رجل رث الهيئة، فقال: يا أبا موسى! انت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا؟ قال: نعم، قال: فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه

إلى العدو، فضرب به حتى قتل، أخرجه مسلم برقم: (1902).

مقتحم لحديقة الموت

وحين اشتد الخطب على المسلمين يوم اليمامة، حين قاتل المسلمون مسيلمة الكذاب وقومه من بني حنيفة فهزموهم، فاعتصم مسيلمة الكذاب ومن معه في حديقة لهم ذات أسوار عالية، وأبواب ضخمة، ولم يجد المسلمون طريقة لاقتحامها أمرهم البراء بن مالك رضي الله عنه أن يلقوه داخل الحديقة وهو يعلم أن الموت دون ذلك، ولكنه يضحي بكل شيء في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ويقوم وحده بعملية استشهادية صاعقة ويفتح باب الحديقة ويقتل دونه عشرة من بني حنيفة.

عن محمد بن سيرين رحمه الله: أن المسلمين انتهوا إلى حائط قد أغلق باب فيه رجال من المشركين، فجلس البراء بن مالك رضي الله عنه على ترس، فقال: ارفعوني برماحكم فألقوني إليهم، فرفعوه برماحهم، فألقوه من وراء الحائط فأدركوه قد قتل منهم عشرة.

وفي رواية: أنه احتمل في ترس على الرماح، والقوه على العدو، فقاتل وحده، وقتل منهم عشرة ويفتح الباب، وجرح يومئذ بضعاً وثمانين جرحاً" رواه البيهقي في سننه (9/44) وابن الأثير وغيرهما.

ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة رضي الله عنهم

خل عني يا خالد

عن ثابت البناني رحمه الله: أن عكرمة بن أبي جهل ترحل يوم كذا، فقال له خالد بن الوليد: لا تفعل فإن قتلك على المسلمين شديد. فقال: خل عني يا خالد، فإنه قد كان لك مع رسول الله صلى لله عليه وسلم سابقة، وإني وأبي كنا من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمشى حتى قتل".

رواه البيهقي: (9/44)، وابن المبارك في الجهاد: (1/88).

وقد كان استشهاد عكرمة رضي الله عنه واقتحامه صفوف الأعداء يوم اليرموك.

يتحنط من أجل الشهادة

وهذا رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ثابت بن قيس ابن شماس رضي الله عنه يعيب على من فر من الميدان يوم اليمامة، ويتحنط من أجل الشهادة، وهذا يعني أنه كان يريد القتال حتى الاستشهاد أو النصر ولا ينوي التراجع عن اقتحام تجمعات المشركين في ذلك اليوم.

عن موسى بن أنس قال: وذكر يوم اليمامة قال: أتى أنس بن مالك ثابت بن قيس وقد حسر عن فخذيه وهو يتحنط فقال: يا عم ما يحبسك أن لا تجيء؟ قال: الآن يا ابن أخي، وجعل يتحنط ـ يعني من الحنوط ـ ثم جاء فجلس، فذكر في الحديث انكشافاً من الناس، فقال: هكذا عن وجوهنا حتى نضارب القوم، ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بئس ما عودتم أقرانكم"

وفي رواية أخرى: "... الآن يا ابن أخي فلبس سلاحه وركب فرسه، حتى أتى الصف، فقال: أف لهؤلاء ولما يصنعون، وقال للعدو، أفٍ لهؤلاء ولما يعبدون خلوا عن سبيله، أو قال: سننه ـ يعني فرسه ـ حتى أصلى بحرها فحمل فقاتل حتى قتل".

أخرجه البخاري برقم: (2845)، والبيهقي: (9/44)، والحاكم: (3/234)

مخترق لصفوف الأعداء

عن محمد بن سيرين رضي الله عنه قال: جاءت كتيبة من قبل المشرق من كتائب الكفار، فلقيهم رجل من الأنصار، فحمل عليهم، فخرق الصف حتى خرج، ثم كر راجعاً، فصنع مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً، فإذا سعد بن هشام يذكر ذلك لأبي هريرة، فتلا هذه الآية: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله) (البقرة: آية 207).

أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (5/322) بإسناد صحيح.

وقوله: فحمل عليهم فخرق الصف حتى خرج، ثم كر راجعاً، فصنع مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً، يعني أن الرجل المسلم قد اقتحم جموع الكفار لوحده ثلاث مرات، وهذا يشعرنا بالروح الاستشهادية الرائعة التي كان

يتمتع بها حتى تجرأ على اختراق جموع الكفار، والحملة عليهم لوحده.

اللهم اجعلني مع صاحب النقب

حاصر مسلم بن عبد الملك حصناً، وكان في ذلك الحصن نقب ـ أي ثقب في الحائط ـ فندب الناس إلى دخوله، فما دخله أحد فجاء من عرض الجيش ـ أي من عامته غير معروف ـ فدخله ففتح الله عليهم الحصن، فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاء أحد، فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله في أي ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء.

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم فلم يفعلوا ولم يلاموا ولم يألوا

فجاء رجل إلى الآذن فقال: استأذن لي على الأمير، فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتى الآذن إلى مسلمة فأخبره عنه، فإذن له، فقال الرجل لمسلمة: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تسودوا اسمه ـ أي ألا تكتبوه ـ في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو؟ ـ أي من أي قبيلة ـ هو ـ قال مسلمة: فذاك له: قال الرجل: أنا هو.

فكان مسلمة بعد هذه الحادثة لا يصلي صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب، ذكره ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار (1/172).

كدتم أن تفقدوني

ومن أولئك الشجعان الذين كانوا يقتحمون الصفوف، ولا يخشون كثرة الأعداء الفارس الشجاع عمرو بن معدي كرب الزبيدي، حيث كان يتمتع بشجاعة خارقة، وجرأة عظيمة، فقد شهد القادسية وقد زادت سنه على المائة عام، صنع مالم يصنع الشباب، فقد نزل عمرو بن معدي كرب يوم القادسية على النهر فقال لأصحابه: إني عابر على الجسر فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور، وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل تلقاء وجهي، وقد غفرني القوم و أنا قائم بينهم، وإن أبطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم، ثم انغمس فحمل على القوم، فقال بعضهم لبعض: يا بني زبيد علام تدعون صاحبكم؟ والله ما أرى أن تدركوه حياً فحملوا فانتهوا إليه، وقد صرع عن فرسه، وقد أخذ برجلي فرس رجل

من العجم، فأمسكها وإن الفارس ليضربه، فما يقدر الفرس أن يتحرك، فلما غشيناه رمى الرجل بنفسه، وخلى فرسه فركبه عمرو، وقال: أنا أبو ثور، كدتم والله أنكم تفقدونني، قالوا: فأين فرسك؟ قال رُمي بنشابة فغاد وشب فصرعني" ذكره الطرطوشي في سراج الملوك، والطبري في تاريخه (4/137).

عمليات استشهادية جماعية

إن العمليات الاستشهادية في تاريخنا الإسلامي لم تقتصر على عمليات يقوم بها أفراد فقط، وإنما سجل لنا التاريخ صفحات رائعة من العمليات الاستشهادية الجماعية قام بها المسلمون، أذكر من بينها ما قام به عقبة بن نافع ومعه ستة الآف من المسلمين في شمال أفريقيا يوم أن حاصره البرابرة ومن معه بعدد ضخم من الجنود زادوا على المائة ألف، فاقتحم عقبة بن نافع ومن معه هذه الجموع وقتلوا عدداً كبيراً منهم، واستشهد عقبة ومن معه رحمهم الله جميعاً.

ومن ذلك ماقام به طارق بن زياد فاتح الأندلس حين لقي تجمع الكفار بقيادة لذريق، وعدد المسلمين يومها لا يزيد على اثني عشر ألفاً، وتجمع الكفار أكثر من مئة ألف، فقال طارق لمن معه: إني حامل على طاغيتهم فاحملوا بأجمعكم معي، ففعلوا ذلك، فقتلوا لذريق وجمع كثير من أصحابه، ونصره الله المسلمين وهزم تجمع الكفار.

ومن ذلك ما فعله ألب أرسلان حين هاجم تجمع الروم الذي كان يزيد على ستمائة ألف، والمسلمون لا يزيد عددهم على اثني عشر ألفاً من المسلمين الصادقين، فقال ألب أرسلان لجنوده، بسم الله وعلى بركة الله احملوا معي، ولا يضرب أحد منكم بسيف ولا يرمي بسهم إلى أن أفعل، وحمل وحملوا معه حملة واحدة خرقوا صفوف المشركين، صفاً بعد صف لا يقف لهم شيء حتى انتهوا إلى سرادق ملك الروم فقبضوا عليه، ونصر الله المسلمين وهزم المشركين من تجمع الروم ومن معهم.

شبهة تحتاج إلى بيان

انحرف فهم المتخاذلين القاعدين انحرافاً كبيراً في فهم آية من كتاب الله تعالى وهي قوله سبحانه {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} (البقرة آية 195) فجعلوا

من هذه الفهم المنحرف حجة لهم يبررون به تخاذلهم وانحرافهم وقعودهم، وتضاعف جرمهم بتوجيه أصابع الاتهام لكل رجل أبي عزيز كريم، يرفض الذل والهوان، ويدافع عن حقه باللسان والبيان، والتضحية بنفسه في حومة الوغى والميدان، بأنه ألقى بنفسه إلى التهلكة.

هذا الصنف المنحرف في فهمه لهذه الآية جعل منها رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم الجهر بالحق، ويبررون بها قعودهم وكسلهم، وجبنهم وذلهم، وخوفهم وخشيتهم، وهذه الآية حجة عليهم، وليست رخصة يحتجون بها كما سيأتي بيانه.

عمر يحارب الشبهة

لم يقف الصحابة رضوان الله عليهم مكتوفي الأيدي وهم يسمعون احتجاجاً في غير موضعها، ويرون انحرافاً في الفهم لأي آية من كتاب الله، بل كانوا يتصدون لتصويب الفهم وتصحيحه، ومن بين أولئك كان عمر رضي الله عنه ـ عن مدرك بن عوف الأحمسي قال: كنت عند عمر رضي الله عنه، إذ جاء رسول النعمان بن مقرن، فسأله عمر عن الناس، فقال: أصيب فلان، وفلان، واخرون لا أعرفهم، فقال عمر رضي الله عنه: لكن الله يعرفهم، فقال: يا أمير المؤمنين! ورجل شرى نفسه، فقال مدرك بن عوف ذلك والله خالي يا أمير المؤمنين زعم الناس انه ألقى بيده إلى التهلكة، فقال عمر: كذب أولئك ولكنه ممن اشترى الآخرة بالدنيا" أخرجه أبن أبي شيبة في المصنف (5/303) بإسناد صحيح والبيهقي: (9/45ـ 46)، من طريق قيس بن أبي حازم ورجاله ثقات رجال الشيخين.

البراء يكمل المشوار

عن أبي اسحاق السبيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب رضي الله عنه: إن حملت على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: {فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك} (النساء آية 84)، إنما هذه في النفقة" وفي لفظ أخر: سأله رجل عن ألآية {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}، هو الرجل يحمل على الكتيبة وهو ألف

والسيف بيده؟ قال: لا، ولكنه رجل يصيب الذنب فيلقي بيده، ويقول: لا توبة لي" أخرجه البيهقي: (9/45)، والطبري في تفسيره برقم: (3167)، والحاكم: (2/275 ـ 276) والحديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

أبو أيوب يزيد الأمر وضوحاً

عن أبي عمران قال: كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام رجل، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، فصففنا لهم، فحمل رجلٌ من المسلمين على الروم، حتى دخل فيه، ثم خرج إلينا، فصاح الناس إليه: سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية على هذا التأويل: إنما أنزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه، قلنا فيما بيننا لبعضنا بعض سراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أقمنا فيها، وأصلحنا منها ما قد ضاع، فأنزل الله تعالى في كتابه يرد علينا ما قد هممنا به فقال: {وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} (البقرة: 195) فكانت التهلكة في الإقامة التي أردنا أن نقيم في أموالنا ونصلحها، فأمرنا بالغزو، فما زال أبو أيوب غازياً في سبيل الله حتى قبضه الله تعالى، أخرجه أبو داود برقم: (1512)، والترمذي: (2972)، والنسائي في التفسير: (48) وغيرهم وإسناده صحيح.

فهذا هو الفهم الصحيح للآية نقله لنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ما فهمه من يحاولون تبرير تخاذلهم وقعودهم عن نصرة الحق وأهله.

غيض من فيض

وبعد فهذا غيض من فيض مما جاء في هذه المسألة من السنة الصحيحة، وأقوال أهل العلم، وأفعال الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان، في جواز العمليات الاستشهادية، بل الحث على القيام بها وندب الشجعان إلى فعلها، خاصة إذا كانت توقع الضرر المادي والنفسي في صفوف الأعداء، سقتها دفاعاً عن أولئك الأبرار الذين يبذلون أنفسهم في سبيل

الله، وفاءً منّا لهم، وذكراً لمآثرهم والحمد لله على توفيقه.